أ-د/ إبراهيم أبراش

البعد القومي للقضية الفلسطينية-المفهوم والمتغيرات

الغضب الفلسطيني على موجة التطبيع العربي الجديدة مع إسرائيل والتي اعتبرتها القيادة الفلسطينية خيانة وطعنة للشعب الفلسطيني وخروجاً عن الإجماع العربي... تستدعي مقاربة موضوعية للأسس والمرتكزات التي تقوم عليها العلاقات الفلسطينية العربية وماذا يعني البعد القومي للقضية الفلسطينية؟ وماذا يعني التطبيع؟ ولماذا على العرب الوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني؟ ولماذا لا يحدث احتجاج فلسطيني مع دول إسلامية مطَبِعة مع إسرائيل بل بينهما علاقات استراتيجية؟ ولماذا يجوز للفلسطينيين الاعتراف بإسرائيل وإقامة علاقات متعددة معها ولا يجوز ذلك للعرب؟

كل ذلك يتطلب العودة للأسس والمرتكزات التي يقوم عليها ما يسمى (البعد القومي للقضية الفلسطينية) وهل تم تجاوزه الآن فقط مع التطبيع الإماراتي البحريني مع إسرائيل؟ أم أنه في حالة تراجع منذ سنوات؟ وهل التطبيع العربي يعني نهاية الروابط والأواصر ما بين الفلسطينيين والشعوب العريبة؟.

نظرا لطبيعة العلاقة بين القضية الفلسطينية ومحيطها العربي فإن القضية الفلسطينية الوحيدة من بين قضايا التحرر العربية لها بعد قومي، وعليه يروج دائما مسمى (البعد القومي للقضية الفلسطينية، ولذا كان تلازم دائم ما بين القضية الفلسطينية والعالم العربي بحيث كانت أية تحولات أو متغيرات كبيرة تحدث في العالم العربي تنعكس مباشرة على القضية الفلسطينية أو لها علاقة بها، فعندما تنتكس الحركة القومية والثورية العربية تنتكس القضية الفلسطينية وعندما تنهض الحالة العربية تنهض معها القضية.

ارتباط فلسطين بمحيطها العربي مستمد من الفكر والمشروع القومي الوحدوي العربي وهو مشروع الشعب العربي الذي يسعى إلى الوحدة القومية والتحرر من الهيمنة الأجنبية ويعتبر أن الكيان الصهيوني في المنطقة مؤامرة استعمارية لتفتيت وحدة الأمة العربية وليكون أداة استنزاف لها. وهذه العلاقة تعود إلى بدايات ظهور المشروع القومي الوحدوي وتساوقه مع ظهور الحركة الصهيونية والأطماع الاستعمارية في المنطقة العربية، وليس بالمصادفة أن يتزامن ظهور الثورة العربية الكبرى 1915 واتفاقية سايكس ـ بيكو 1916 ووعد بلفور 1917، وهكذا أصبح مواجهة الخطر الصهيوني وما يشكله من تهديد للأمة العربية ووحدتها جزءاً لا يتجزأ من فكر الحركة القومية وأهدافها النضالية، وأصبحت القضية الفلسطينية قاسماً مشتركاً بين كل الحركات والتنظيمات والأنظمة القومية العربية، وأصبح تحرير فلسطين هو الهدف المشترك لها (على مستوى الشعارات والبرامج المعلنة) بل كان الفلسطينيون ممنوعين من أخذ قضيتهم بأيديهم وكان عليهم انتظار المنقذ العربي لتحرير بلدهم حيث رفعت الأنظمة العربية شعار (الوحدة طريق التحرير) إلى أن جاءت الثورة الفلسطينية المعاصرة لتعكس الشعار .

كان أي نهوض وتغيير تشهده المنطقة له تداعيات على القضية الفلسطينية سلباً أو ايجاباً حسب طبيعة وسياسات النظم السياسية القائمة والحوامل الاجتماعية والسياسية التي تقود عملية التغيير وعلاقة هذه القوى بالدول الكبرى ذات الصلة بالصراع في الشرق الأوسط.

فمع أن الشعب الفلسطيني هو المعني أكثر من غيره بالصراع بفعل وقوعه مباشرة في بؤرة الحدث وبفعل كونه الأكثر تضرراً من مجريات الأحداث، إلا أن دوره كفاعل كان مقيداً ومحكوماً بالحالة العربية وبالعلاقات وموازين القوى التي تؤسسها مع إسرائيل، وكنتيجة لذلك أيضاً، فإن النكسات والهزائم التي تعرضت لها القضية الفلسطينية خلال مسيرتها الطويلة وعبر محطاتها المأساوية البارزة 1948و1967و1970و1982 و2007 لم تكن نتيجة لتقاعس أو تقصير الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية فقط بل كان للأطراف الأخرى العربية المصنفة ضمن معادلة الصراع دور رئيس في حدوثها وهي التي تتحمل مسؤوليتها وبالتالي فإن وقوف الأنظمة العربية إلى جانب فلسطين ليس منَّة منهم بل واجب عليهم لأنهم يتحملون مسؤولية قانونية وأخلاقية وتاريخية عن ضياع فلسطين.

مع الانهيارات المتوالية للنظام الرسمي العربي أخذ يبحث عن تسوية مع إسرائيل لمجمل الصراع العربي الإسرائيلي ولم تعد القضية الفلسطينية قضية العرب الأولى بل لم تتورع أنظمة عربية عن توظيف معاناة الشعب الفلسطيني لخدمة قضاياها الخاصة، وبعضها تآمر على الفلسطينيين.

بالرغم من تنكر إسرائيل لاتفاقات السلام الموقعة واستمرارها في عدوانها على الفلسطينيين والذي وصل ذروته في انتفاضة الأقصى عام 2000 حيث تم اجتياح الضفة الغربية وحصار الرئيس الفلسطيني في مقر إقامته في رام الله، إلا أن الأنظمة العربية استمرت في تمسكها بنهج السلام وكشفوا كل أوراقهم وهذا ما تم في مبادرة السلام العربية التي تم طرحها في قمة بيروت 2002. ويمكن اعتبار هذه المبادرة تعبيرا عن الموقف الرسمي لكل الأنظمة العربية، وإن كان سقف بعض الأنظمة أدنى من المبادرة فلا توجد أنظمة عربية لها سقف أعلى، حتى تم اختراقها من طرف الإمارات العربية والبحرين في سبتمبر 2020.

في مقابل الموقف الرسمي السلبي كان موقف الشعوب العربية داعماً ومؤيداً في غالب الآحيان، ووقفت الشعوب العربية إلى جانب الشعب الفلسطيني بما تستطيع. أحياناً كان الدعم مادياً كالتبرعات المالية والعينية متعددة الأشكال وفي حالات كثيرة شارك مقاتلون عرب إلى جانب الثوار الفلسطينيين وآخرون شاركوا سياسياً وإعلامياً، وأحياناً كان دعماً معنوياً من خلال الخروج في الشوارع في مسيرات ومظاهرات أو خلال الإعلام بكل أشكاله.

الرأي العام العربي بشكل عام متعاطف مع الشعب الفلسطيني لاعتبارات قومية ودينية وإنسانية، ولكن هذا التأييد والتعاطف كان يتفاوت ما بين تعاطف بسيط وعفوي وهذا يمكن التأثير عليه من طرف النظام أو الأحزاب السياسية أحيانا، وتعاطف مسيس ومبدأي وخاصة لدى المنتمين لأحزاب المعارضة سواء كانت دينية أو يسارية. ومع ذلك وظفت الأحزاب القضية الفلسطينية في خضم صراعها مع الأنظمة بحيث كانت تخرج إلى الشارع تحت شعار حماية الأقصى أو دعم الانتفاضة، إلا أن هذا الخروج كان يستخدم أحياناً لاستعراض قوة في مواجهة النظام ولكسب تأييد الشارع، ومع ذلك لعبت الأحزاب السياسية وخصوصا المعارضة دورا في إبقاء القضية الفلسطينية حية عند الجمهور العربي .

ما جرى في الاجتماع الأخير لجامعة الدول العربية على مستوى وزراء الخارجية العرب والتوقيع على اتفاقية تطبيع إماراتي بحريني مع إسرائيل يوم الخامس عشر من سبتمبر الجاري وردود الفعل الفلسطينية الرسمية التي وصلت لحد مطالبة بعض الرسميين بالانسحاب من جامعة الدول العربية، كل ذلك يؤشر إلى وضع غير مسبوق في توتر العلاقات الفلسطينية العربية الرسمية، كما يُنذر بمنزلقات خطيرة سواء من الدول العربية تجاه التطبيع بعد أن شرعنت جامعة الدول العربية التطبيع المنفرد مع إسرائيل أو تجاه التعامل مع منظمة التحرير والقيادة الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، أو انزلاق القيادة الفلسطينية نحو سياسات واصطفافات تدفعها لتكون طرفاً في أحد المحاور العربية المتصارعة، أيضاً ربما يكون الموقف العربي المتخاذل دافعاً للبعض من الفلسطينيين ليطالب بإعادة النظر في الموقف تجاه الإدارة الأمريكية وإسرائيل والبحث عن قنوات للتواصل معهما بدون أي شروط مسبقة.

مع رفضنا لكل أشكال التطبيع بما فيه التطبيع الإماراتي الإسرائيلي ورفضنا للسياسة المتخاذلة لجامعة الدول العربية، إلا أنه من الخطورة وصول الأمور بين الفلسطينيين وجامعة العربية لهذا المستوى من التوتر، وخصوصاً إن أثر الخلاف الرسمي على العلاقة مع الشعوب العربية، كما أنه لا داع هذا الهلع من القمة العربية وقراراتها التي تاريخياً لم يلتزم بها أحد وكل قرارات القمم العربية تبقى حبراً على ورق، حتى المبادرة العربية للسلام التي صدرت على شكل قرار قمة في قمة بيروت 2002 لا يمكن اعتباره قراراً ملزماً بعد الانهيارات التي عرفها العالم العربي في ظل فوضى الربيع العربي، ولأن الدول العربية قبل التطبيع الإماراتي لم تكن قائمة بالتزاماتها تجاه الشعب الفلسطيني وفي مواجهة العدوان والتحالف الإسرائيلي الأمريكي، وغالبية الدول العربية .

نتفهم أن الغضب الشعبي الفلسطيني على جامعة الدول العربية وعلى موقفها من التطبيع ينطلق من منطلق أن القضية الفلسطينية ما زالت عند الأنظمة العربية قضيتهم الأولى أو هكذا يجب أن العالم كله والعالم العربي تحديداً تغير كثيراً والواقع يقول بأن القضية الفلسطينية لم تَعد قضية الأنظمة العربية والإسلامية الأولى في ظل فوضى الربيع العربي والأزمة البنيوية والوظيفية التي تهدد وجود الدول الوطنية القائمة.

ولكن، وإن كان بعض العرب خانوا الأمانة وتنكروا للشعب الفلسطيني كما يقول الفلسطينيون فلا يجوز أو يمكن للفلسطينيين التخلي عن العرب أو يحققوا انجازاً في نضالهم بدون العمق العربي الشعبي والرسمي، كما لا يكفي أن تستمر القيادة الفلسطينية في التنديد بكل تطبيع عربي وبإلقاء اللوم على الأنظمة العربية وجامعتهم العربية لأنهم لم يتخذوا القرارات التي يريدها الفلسطينيون، فالجامعة العربية كانت تاريخياً خاضعة لموازين القوى العربية ولتوجهات دولة المقر والدول ذات التأثير والنفوذ الأيديولوجي أو المالي، وهي اليوم لا تشذ عن هذه القاعدة، كما أنها اليوم شاهد زور على كل الحروب الأهلية والصراعات في المنطقة العربية والغائب فيما كل دول العالم وخصوصاً دول الجوار تتدخل بل وتنتهك السيادة العربية. القيادة الفلسطينية تعرف كل ذلك وأكثر من ذلك وكان يجب على الدبلوماسية الفلسطينية معرفة ذلك واستيعاب ما يجري في العالم العربي من تحولات عميقة وليس إدارة الظهر لها وتجاهلها.

عندما وقعت مصر اتفاقية كامب يفيد قاطع العرب مصر وتم نقل مقر جامعة الدول العربية إلى تونس وخرجت مظاهرات مليونية في غالبية الدول العربية تندد بكامب ديفيد وبمصر ، واليوم عندما تطبع الإمارات والبحرين تقف جامعة الدول العربية مع المطبعين وليس مع رافضي التطبيع ويقاطع الفلسطينيون جامعة الدول العربية ويشعرون بالاستياء من موقف غالبية الدول العربي، ولم نسمع أو نشاهد في الدول العربية إلا أصوات محدودة تندد بالتطبيع ، هذا تحول استراتيجي خطير

مواجهة التطبيع ليسن كخمة الفلسطينيين بل الشعوب المعنية+++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++++